الورقة الأخيرة

مع مصطلح الشعر العمودي !

بقلم : د . عدنان علي رضا النحوي - السعودية

هناك خطأ شاع على الألسنة وفي الصحافة ، ولدى عدد من الأدباء ، حين يستخدمون كلمة " الشعر العمودي " ، بمعنى الشعر الموزون المقفى ، وهذا استعمال خاطئ ، لأن هذا المصطلح الفني لم نضعه نحن ، وإنما وضعه أدباؤنا المسلمون . ولم يكن للوزن والقافية علاقة بمصطلح " الشعر العمودي " أو " عمود الشعر " ، لأن الوزن والقافية لم يكونا موضع بحث أو خلاف في موضوع الشعر .

فلقد كان للشعر مفهوم واضح محدّد ، يختلف به عن النثر ، فبالإضافة إلى الأوزان والقوافي التي كانت تمثّل طبعاً عند العرب ، فكذلك كان لكلمة الشعر معنى خاص في القلوب ، وفيما بعد في المعاجم والدراسات . ذلك المعنى هو أن الشعر يعني العلم . ولكنّ هذا المفهوم لم يكن ليمنع الخيال والعاطفة عن الشعر ولا عن النثر . وفي اللغة العربية يمكن للأديب صاحب الموهبة أن يُفرغ في النثر روائع الخيال المجنَّح والعاطفة الغنية ، أو يفرغها في الشعر .

واستقرّ الأمر عند العرب عندما نزل القرآن الكريم على معنى واحد وتصوّر واحد للشعر ليتميّز به من النثر ، ذلك بأن الشعر هو الكلام الموزون المقفّى على الصورة التي نضج عليها آنذاك ، ثم يحمل بعد ذلك ما يشاء من المعاني والأساليب . وهذا ما عرف به ابن خلدون الشعر في مقدمته ، فيقول : " هو كلام مفصّل قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة ، وتسمى كل قطعة بيتاً ... " ويقول : " واعلم أن فنّ الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب ، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم ... " ، هذا هو الوضع النهائي للشعر في اللغة العربية ، بغض النظر عن مرحلة سابقة يُظنّ بها ظنّاً .

هذا هو الشعر الذي وصلنا في مرحلة نضجه واستقراره ، في المرحلة التي اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية لتكون لغة الوحي والقرآن الكريم ، ولغة النبوة الخاتمة ، ولغة الصلاة والعبادة .

وأصبح هذا الشعر سجيّةً وطبعاً لا يمكن أن يخرج إلا من موهبة حقيقية يضعها الله فيمن يشاء من عباده ، ولذلك قال الحطيئة :

الشّعرُ صعبٌ وطويلٌ سُلّمهُ
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمهُ